علوم القرآن الكريم

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م
الطبعة الثانية
١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م
الطبعة الثالثة
١٤١٠هـ - ١٩٨٩م
الطبعة الرابعة
١٤١١هـ - ١٩٩٠م
الطبعة الخامسة
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م
وهي الأولى
معدلة تعديلاً جذرياً وفيها زيادات
كثيرة واستدراك
الطبعة السادسة
منقحة
١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

حقوق الطبع محفوظة

مطبعة الصباح
دمشق - هاتف ٢٢٢١٥١٠
عدد النسخ (١٠٠٠)

الدكتور نور الدين عتر
أستاذ التفسير والحديث بكليات الشريعة والآداب بجامعتي دمشق وحلب

علوم القرآن الكريم

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، أنزل القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، وصلى الله على سيدنا محمد هادي البشرية ، ومنقذ بني الإنسان ، على مـدى السنين والأزمان ، وعلى آلـه وصحبه ومَن تبعهم بـإحسان وسلّم تسليماً كثيراً .

أما بعد :

فإن القرآن الكريم هو هداية الله العظمى ، وبينته الخالدة ، وهو شريعة الله ودينه الذي ارتضاه لعباده ، مَن ابتغى الهدى في غيره فلن يقبل منه ، ومن اعتصم به فلن يضل عن صراط ربه ، وهو الروح الذي يطير به الإسلام إلى القلوب ، والمد الساري في تغذية الأرواح والنفوس ، والنظام الكامل الكافل لسعادة الإنسان ، في هذه الدنيا ، ثم في الآخرة في أعالي الجنان .

فلا عجب أن تكثر الدراسات حوله حتى لا تحصى ، وأن تفيض القرائح والأقلام بالمؤلفات من دراسته حتى لا تستقصى ، وإن من أهم دراسة تتأكد على دارس القرآن خاصة ، والمثقف المسلم عامة هي هذه الدراسة التي نقدم فيها هذا الكتاب ، تبين مصدر هذا القرآن الإلهي ، ونزوله لهدايتنا ، وأصول تفسيره، وما يلزم من علوم ودراسات ضرورية لحسن فهمه، وتبرز إعجازه في فنون بيانه ، وعجائب معانيه ومضـامينه ، تثلـج قلب القـارىء بحلاوة اليقين

بكتاب الله ، وحقيـة الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ، مؤيداً بالأدلة الساطعة والحجج اليقينية القـاطعة ، وضمنتـه إيضاحاً لما التبس على بعض الكاتبين ، وتصحيحاً لما خبط فيه بعض المعاندين ، من أجانب مستشرقين ، أو أتباع لهم من جلدتنا مقلدين .

وراعيت في ترتيبه ما يتصل بالتفسير ، ثم الإعجاز ، وفي أسلوبه وضوح العبارات ، والاقتصار على المهمات ، مما يحتاجه دارسو الشرع الحنيف ، وراغبو الثقافة في ضوء القرآن الكريم .

ونود أن ننبه أخيراً إلى أن كل مسلم يحتاج إلى هذه الـدراسة ، فـإن أَحْسَسْتَ بشيء في صدرك فارجع إلى هذه الدراسة وتأملها ، لتجد راحة القلب بالإيمان ، وادع إليها مَن تحبه ومَن تريد قربه إلى كتاب الله ، لأنها تزيد اليقين بكتـاب الله تعالى ، وتـرسخه .

قال تعالى : **﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ والجِنُّ على أنْ يأْتوا بِمِثْلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِهِ ، ولو كانَ بعضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾** .

كتبه

نور الدين عتر

خادم القرآن وعلومه والحديث وعلومه

الفصل الأول
التعريف العام بعلوم القرآن

هذا التعبير «علوم القرآن» **يدل لغة على أنواع العلوم التي تتصل بالقرآن الكريم** .

وهكذا كان يستعمل في عصور المتقدمين ، فيراد به علوم تؤخذ من القرآن من علوم الشرع ، كالعقيدة ، أو الفقه ، أو الأخلاق ، أو من المعارف العامة حول الإنسان ، والكون ، والطبيعة ، والنبات ، والسماء والأفلاك .

كما يراد بـ «علوم القرآن» لغة علوم تخدم معاني القرآن مباشرة ، وتوصل إليها ، أو تدور حوله ، أو تُسْتَمَدُّ منه ، فيدخل تحت هذا التعبير بهذا الاستعمال اللغوي الثاني علوم كثيرة ضخمة ، مثل : علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الرسم العثماني ، وعلم إعجاز القرآن ، وعلم إعراب القرآن ، وسائر علوم الدين واللغة والبلاغة ، وغير ذلك ، من علوم ، درس العلماء في تآليفهم فيها القرآن كله في ضوء كل علم دراسة تفصيلية .

ثم جعل العلماء هذه العبارة : «علوم القرآن» اسم عَلَم ، يراد به معنى خاص يدل على علم خاص غير ما سبق كله ، لأن هذا المعنى الجديد يختص بأنه علم واحد يجمع ضوابط تلك العلوم المتصلة بالقرآن من ناحية كلية عامة ، أما علوم القرآن بالمعنى اللغوي فإن كل علم منها يدرس القرآن كله من زاوية اختصاصه آية آية دراسة تفصيلية .

وبناء على ذلك يمكن أن نعرف «علوم القرآن» باعتباره إسماً لعلم واحد فنقول :

«**علوم القرآن في الاصطلاح : هو المباحث الكلية التي تتعلق بالقرآن الكريم** من ناحية نزوله ، وترتيبه وجمعه ، وكتابته ، وتفسيره ، وإعجازه وناسخه ومنسوخه ، وغير ذلك»[1] .

التصنيف في علوم القرآن :

وبالنظر لأهمية هذا العلم كثرت الدراسات فيه في القديم والحديث ؛ فكتب كثير من المفسرين في مقدمات تفاسيرهم بحوثاً هامة في علوم القرآن ، عنوا فيها بما يتعلق بأصول تفسيره وإعجازه ، على مثال مقدمة الطبري ، لتفسيره «جامع البيان» ، والقرطبي لتفسيره «الجامع لأحكام القرآن» .

وصنف العلماء مؤلفات مستقلة تشمل كل علوم القرآن ، مثل هذه الكتب الهامة :

١ ـ «فنون الأفنان في عيون علوم القرآن» ، للإمام أبي الفَرَج عبد الرحمٰن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ .

٢ ـ «البرهان في علوم القرآن» ، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤ .

٣ ـ «الإتقان في علوم القرآن» ، للإمام جلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي المتوفى سنة ٩١١ . وقد بناه على كتاب البرهان ، وأضاف إليه فوائد وبحوثاً .

وفي هذا العصر اقتصر الباحثون في هذا العلم على أهم ما يحتاج إليه الدارس في هذا العصر ، اعتماداً على تكملة بحوث أخرى من علوم شرعية

---

(١) ومن هنا ندرك الخطأ الواضح الذي وقع فيه من عرّف علوم القرآن فقال : «هي جميع المعلومات والبحوث التي تتعلق بالقرآن. . .» .
فقد خلط بين المعنى اللغوي وهو يدل على علوم كثيرة، والمعنى الاصطلاحي وهو علم واحد ، ألا ترى إلى قوله «هي» . وهكذا استمر الخطأ . . .

ولغوية أو اعتقادية مقررة في مناهج معاهد العلوم والدراسات الإسلامية .

ومن أهم المؤلفات المعاصرة ما يلي :

١ ـ «مناهل العرفان في علوم القرآن» ، للعلاّمة الكبير محمد عبد العظيم الزرقاني . وهو كتاب حافل واسع المحتوى ، عذب الأسلوب يقع في مجلدين .

٢ ـ «المدخل إلى دراسة القرآن الكريم» ، لفضيلة أستاذنا الدكتور العلاّمة الشيخ محمد محمد أبو شهبة .

٣ ـ «البيان في علوم القرآن» ، لفضيلة أستاذنا الدكتور العلاّمة الشيخ عبد الوهاب غزلان .

٤ ـ «مباحث في علوم القرآن» ، للأستاذ الدكتور صبحي الصالح .

٥ ـ «من روائع القرآن» ، للأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي .

وقد قسم بعضهم كتابه أبواباً . منها : «باب تاريخ علوم القرآن» و «باب علوم القرآن» .

ونرى في هذا التقسيم خللاً وضعفاً ، لأن العنوان الثاني : «علوم القرآن» يوهم أن الأبحاث الأخرى ليست من علوم القرآن ، وهي قطعاً من علوم القرآن ، فكيف تستبعد عن هذا العنوان ولا تُدْرج تحته .

ونود التنبيه إلى أن التصنيف في علوم القرآن بالمعنى الأول مستمر أيضاً لم ينقطع ، وذلك تلبية لحاجة العصر من كشف دسائس وفضح أباطيل ، أو تفصيل مسائل واستيفائها بالبحث ، أو لإظهار مزيد من أوجه الإعجاز الذي أفاده تقدم العلوم ، الأمر الذي يزيد اليقين بأن هذا القرآن كتابُ الله المعجز على الدوام .

﴿تذكرةً لمَن يخشى . تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى﴾ .

* * *

الفصل الثاني
القرآن والوحي وتنزلاته

القـرآن

هـذا الإسم «قـرآن» في اللغـة : على أصـح الآراء مصـدر على وزن غُفْران ، بمعنى القراءة ، ومنه قوله تعالى : ﴿**إنَّ علينا جَمْعَه وَقُرْآنه ، فـإذا قَرَأْناه فاتَّبِعْ قُرآنه**﴾ .

وأما تعريف القرآن اصطلاحاً : فقد تعددت تعاريف العلمـاء للقرآن ، بسبب تعدد الزوايا التي ينظر العلماء منها إلى القرآن ـ وإن كان التعبير بأنـه الكلام المعجز كافياً ـ ونحن نختار هنا التعـريف المناسب لغـرض دراستنا ، أعني التمهيد بمعارف عامة وهامة موجزة عن القرآن الكريم فنقول :

«القـرآن هو كـلام الله المنزل على النبي محمـد صلى الله عليه وسلّم المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبـد بتلاوتـه، المعجز ولـو بسورة منه» .

وقـد اشتمل هـذا التعريف على الصفـات التاليـة للقرآن ، وتعتبـر في اصطلاح أهل التعاريف قيوداً تشمل المعرّف وتميزه عما عداه وهي :

آ) **كلام الله المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم** :

وتتضمن هذه الجملة أموراً نذكر منها :

١ ـ إبعاد كل كلام لغير الله تعالى ـ مهما كـان عظيمـاً ـ عن أن يُسَمَّى قرآناً ، وسواء في ذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره من الإنس والجن والملائكة ، فكل ذلك لا يسمى قرآناً .

٢ ـ قوله : «على محمد» : احتراز عما أنزل على الأنبياء السابقين ، كالتوراة والإنجيل ، والزبور وغيرها ، فلا يسمى شيء منها قرآناً .

ب) المكتوب في المصاحف :

وهذه مزية للقرآن أنه دُوِّن وحُفِظَ بالكتابة منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبإشرافه واعتنائه الزائد .

ثم لما قام الصحابة بجمع القرآن في المصحف وكتبت المصاحف في عهد عثمان ، أجمع الصحابة على تجريد المصحف من كل ما ليس قرآناً ، وقالوا : جرّدوا المصاحف ، فمَن ادعى قرآنية شيء ليس في المصاحف فدعواه باطلة كاذبة ، وهو من المفترين على الله وعلى رسوله .

ج) المنقول بالتواتر :

أي أن القرآن قد نقله جمع عظيم غفير لا يمكن تواطؤهم على الكذب ولا وقوع الخطأ منهم صدفة ، هذا الجمع الضخم ينقل القرآن عن جمع مثله وهكذا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك يفيد العلم اليقيني القاطع بأن هذا القرآن هو كلام الله تعالى المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم .

وهذه خصوصية ليست لغير القرآن من كتب السماء . فإن الكتب السابقة لـم يُتَحْ لها الحفظ في السطور ولا في الصدور ، فضلاً عن أن تنقل بالحفظ نقلاً متواتراً جيلاً عن جيل .

أما القرآن فقد جعل الله فيه قابلية عجيبة للحفظ ، كما قال تعالى : **﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ للذِّكْرِ فهل مِن مُدَّكِرْ﴾** .

بل إن هذه الخصوصية ، خصوصية حفظ القرآن في الصدور بلغت مبلغاً عجيباً ، فهذه أمم العجم ، تحفظ القرآن عن ظهر قلب حفظاً متيناً لا يتطرق إليه خلل ولا بكلمة واحدة ، ولا تفريط في حكم تجويد ، وتجد أحدهم مع حفظه هذا لا يدري من العربية شيئاً .

د) المتعبد بتلاوته :

أي أن مجرد تلاوة القرآن عبادة يثاب عليها المؤمن ، ولو لم يكن

استحضر نية تحصيل الثواب بالتلاوة ، كما أن الصلاة لا تصح إلا بتلاوة شيء منه ، وقد وردت نصوص كثيرة غزيرة في الحض على تلاوة القرآن وبيان فضلها وعظمة ثوابها ، وألّف العلماء في ذلك كتباً كثيرة نافعة[1] . وهذا القيد يخرج من اعتبار القرآن القراءات الشاذة ، لأنا غير متعبدين بها ، وكذا الأحاديث القدسية .

هـ) المعجز ولو بسورة منه :

الإعجاز أعظم خصائص القرآن ، حتى لو عُرّفَ القرآنُ بهذه الصفة : «الكلام المعجز» لكفى ذلك لتمييزه والتعريف به .

والقرآن معجز بجملته ، كما أنه معجز بأي سورة منه ، ولو كانت هي أقصر سورة من سوره .

قال تعالى : ﴿**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ والجِنُّ على أنْ يأْتوا بِمِثْلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِهِ ، ولو كانَ بعضُهُم لِبَعْضٍ ظَهِيراً**﴾[2] .

وقال تباركَتْ أسماؤه: ﴿**وإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمّا نَزّلْنا على عبدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِنْ دُونِ اللّهِ إنْ كُنْتُمْ صادِقين . فإنْ لم تَفْعَلُوا ولَنْ تَفْعَلُوا فاتّقُوا النارَ التي وقودُها الناسُ والحجارَةُ أُعِدَّتْ للكافرين**﴾[3] .

وهذا الإعجاز برهان قاطع على أن القرآن كلام الله تعالى ، وأنه الحق الذي يجب الإيمانُ به واتباعُه ، والحذرُ من مخالفته وعصيانه .

أسماء القرآن :

عرفنا أن لفظة **القرآن** هي أشهر أسماء القرآن الكريم ، بل هي الاسم العلم الدال على هذا الكتاب العزيز ، وللقرآن الكريم أسماء أخرى كثيرة يشير كل منها إلى جانب من خصائص القرآن أو فضائله ، أو أهدافه ، وقد عُنِيَ العلماء بإحصائها واستقصائها وشرحها .

---

(١) نذكر للقارىء منها كتاب «تلاوة القرآن المجيد» لفضيلة أستاذنا العلاّمة الشيخ عبد الله سراج الدين . (٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٨ . ظهيراً : ناصراً ومؤيداً .
(٣) سورة البقرة ، الآيتان ٢٣ ـ ٢٤ .

ومن أشهر أسماء القرآن الكريم :

«**الكتاب**» : وهذه المادة مأخوذة في أصلها من الكَتْبِ ، أي الجمع ، ومنه الكتيبة للجيش لاجتماعها ، ثم أُطْلِقَتْ على الكتابة ، لجمعها الحروف[1] ، وسمّي القرآن بذلك لأنه يجمع أنواعاً من القصص والآيات والأحكام والأخبار على أوجه مخصوصة ، كما ذكروا .

إلا أنا نرى حقاً ما قرره المحقق الدكتور محمد عبد الله دراز[2] أن في تسمية القرآن بهذين الاسمين : القرآن والكتاب : «إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد ، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً ، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل ، على هيئته التي وضع عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفّاظ بالإسناد الصحيح المتواتر .

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيّها بقي القرآن محفوظاً في حِرْزٍ حَرِيز ، إنجازاً لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول : ﴿**إنّا نحنُ نزّلْنا الذِّكْرَ وإنّا لَهُ لَحافِظون**﴾[3] ، ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند ، فإن الله لم يتكفل بحفظها ، بل وَكَلَها إلى حفظ الناس فقال تعالى : ﴿**والرّبّانِيّون والأحبارُ بما اسْتُحْفِظوا مِنْ كتابِ الله**﴾[4] ، أي بما طُلِبَ إليهم حفظه .

والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيءَ بها على التوقيت لا التأبيد وأن هذا القرآن جيء به مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها ، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة ، زائداً عليها بما شاء الله زيادته ، وكان

---

(١) كما اتفقت عليه المعاجم ، فلا معنى للالتفات لما كتبه بعض المستشرقين من إرجاع هذه الكلمة أو غيرها إلى أصل غير عربي من الآرامية أو غيرها ، فذلك زعم لا أرومة له .

(٢) في النبأ العظيم ص ٧ ـ ٩ .

(٣) سورة الحِجر ، الآية ٩ .

(٤) سورة المائدة ، الآية ٤٤ .

سادّاً مَسَدَّها ولم يكن شيء منها ليسدّ مَسَدَّه ، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة ، وإذا قضى الله أمراً يسر له أسبابه ، ﴿وهُوَ الحَكِيمُ العليم﴾ .

ومن أسماء القرآن :

«**النور**» : قال تعالى : ﴿**يا أيُّها الناسُ قَدْ جاءَكُم بُرْهانٌ مِنْ ربِّكُمْ وأَنْزَلنا إليكُمْ نُوراً مُبِيْناً**﴾[1] .

ومناسبة هذه التسمية أن القرآن يكشف الحقائق ويجلوها ببيانه الناصع ، وبرهانه الساطع ، ويجعلنا ندرك غوامض الحلال والحرام ، وما لا يستقل العقل بالتوصل إليه من علوم العقيدة والشريعة وغيرها .

«**الفُرْقَان**» : قال تعالى : ﴿**تَبارَكَ الذي نزَّلَ الفُرْقَانَ على عَبْدِه لِيَكُونَ لِلْعالَمِين نَذِيراً**﴾[2] .

ووجه هذه التسمية : أنه فرّق بين الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والحلال والحرام ، والخير والشر ، وذلك لغاية كماله في الهداية والبيان .

الوحـي

معنى الوحي لغة :

قال الإمام ابن فارس[3] : «الواو والحاء والحرف المعتل : أصل يدل على إلقاء علم في إخفاءٍ إلى غيرك ، فالوحي الإشارة ، والوحي : الكتاب والرسالة ، وكل ما أَلْقَيْتَه إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان» .

ويختص معنى الوحي لغة إضافة إلى ما قاله ابن فارس بتضمنه معنى السرعة ، فالإشارة السريعة هي التي يقال لها : وحي .

وورد الوحي في القرآن بمعنى الإلهام ، كما في قوله تعالى : ﴿**وَأَوْحَيْنا إلى أُمِّ موسى أنْ أرْضِعِيه**﴾[4] .

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٧٤ .
(٢) أول سورة الفرقان .
(٣) معجم مقاييس اللغة .
(٤) سورة القصص ، الآية ٧ .

كما ورد بمعنى الوسوسة : ﴿**وإنَّ الشياطينَ لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيائِهم لِيُجَادِلُوكم**﴾[1] .

أما في الاصطلاح الشرعي :

فالوحي هو إعلام الله تعالى لمَن اصطفاه من عباده بطريق خفية سريعة .

مراتب الوحي :

وإذا ابتغينا التفصيل لهذا الإجمال عن الوحي ، وتساءلنا عن كيفياته وأحواله وآثاره فإن خير مرجع يحقق لنا تلك الأمنية هو صاحب الوحي نفسه ، في نصوص القرآن الصريحة والأحاديث الصحيحة .

كما جاء في الحديث الصحيح : «أولُ ما بُدِيءَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحةُ في النوم ، فكان لا يَرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنّث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزعَ إلى أهله ويتزود لمثلها» .

«حتى جاءه الحق وهو في غار حِراء فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجَهْدَ ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجَهْد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطّني الثالثة فقال : ﴿**اقْرَأْ باسمِ ربِّك الذي خلق . خلق الإنسانَ من علق . اقرأ وربُّك الأكرم . الذي علّم بالقلم**﴾ . فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده . فدخل على خديجة بنت خُوَيلد فقال : زمِّلوني زمِّلوني ، فزمّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْع . فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ : لقد خشيت على نفسي . فقالت له : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيفُ ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به وَرَقَةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العُزّى ، ابن عم خديجة ، وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب في

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢١ .

الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت له خديجة: يا ابن عمٍّ ، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى.

فقال: له وَرَقة: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى ، يا ليتني فيها جَذَعٌ ، ليتني أكون حياً إذ يُخْرِجك قومك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أوَ مُخْرِجِيّ هم؟!**» قال: نعم ، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جِئْتَ به إلا عُودي ، وإن يُدركْني يومُك أنصرْك نصراً مُؤزَّراً.

ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي».

قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سلَمة بن عبد الرحمٰن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: وهو يحدث عن فترة الوحي: فقال في حديثه: «بينما أنا أمشي سمعتُ صوتاً من السماء فرفعتُ بصري فإذا الملك الذي جاء في حراء جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض ، فَرُعِبْتُ منه فرجعتُ ، فقلت: زَمِّلُوني زَمِّلوني ، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾. فَحَمِيَ الوحيُ وتواتر»[1].

كيفيات الوحي:

وليست مراتب الوحي مقتصرة على هذين الحالين اللذين عرفناهما من الحديث: الرؤيا والأخذ من المَلَك ، بل إن له مراتب وكيفيات عدة ذكر القرآن الكريم أصولها في قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[2].

وقد دلّت هذه الآية الجامعة على كيفيات الوحي وأنها ثلاث لا رابع لها ، وسماها العلماء مراتب الوحي ، وهي:

---

(١) أخرجه البخاري في أول صحيحه ومسلم في الإيمان ج ١ ص ٥٧. غَطّني: ضمني وعصرني بقوة. زمّلوني: لففوني بالثياب. الرُّوع: الفَزَع. الناموس: صاحب السّرّ. جَذَع: شاب. لم يَنْشَبْ: لم يلبث.

(٢) سورة الشورى: الآية ٥١.

١ ـ أن يلقي الله ما يريد إلقاءه إلى النبي مباشرة بطريق خفي سريع دون واسطة.

٢ ـ أن يكلم الله النبي ، من وراء حجاب تكليماً.

٣ ـ أن يُرْسِلَ الله المَلَك إلى النبي فيلقي إليه ما أمره الله تعالى به.

وقد بحث العلماء في هذه المراتب ـ ومرادهم كيفيات الوحي ـ واستقصوا أحوالها فيما ورد من وصف الوحي من الكتاب والسنّة ، وأوصلوها إلى سبع مراتب ينقسم إليها الوحي ويقع بها ، ومنهم مَن جعلها ثماني مراتب[١] ، وترجع كلها إلى المراتب الأساسية التي ذكرتها الآية ، وتندرج في ضمنها ولا تتجاوز حدها ، كما يتضح من هذا البيان الذي يشرحها:

المرتبة الأولى: الرؤيا الصادقة ، وذلك كما ورد في حديث عائشة: «أول ما بُدِىء به رسولُ اللهِ ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحةُ في النوم» ، والوحي في هذه المرتبة إما أن يكون بإلقاء الله أو بواسطة المَلَكِ ، فهو داخل في الآية لا يخرج عنها.

المرتبة الثانية: أن يأتيه المَلَك يَقَظَةً ، فيلقي في رُوعه أي قلبه وباله من غير أن يسمعه ولا يراه ، كما أخرج الشهاب والحاكم عن ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إن رُوْحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعي: أن نفساً لن تموتَ حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب..»[٢].

المرتبة الثالثة: أن يَتَمَثَّل له المَلَك رجلاً فيخاطبه فيعي عنه ما يقول: كما في الحديث المشهور من سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن

---

(١) انظر في ذلك الروض الأُنُف للسهيلي ج ١ ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ، وزاد المعاد لابن القيم ج ١ ص ٧٧ ـ ٨٠ (ط. الرسالة) ، والإتقان للسيوطي ج ١ ص ٤٤ ، والمواهب اللدنية للقسطلاني ، وشرحه للزرقاني ج ١ ص ٥٥ ، وغيرها.

(٢) مسند الشهاب بلفظه ج٢ ص١٨٥ والمستدرك بنحوه ج ٢ ص ٤ وله شواهد كثيرة تقويه.

الإسلام والإيمان والإحسان والساعة. وهو متفق عليه[1].

المرتبة الرابعة: أن يأتيه الملك على حاله المَلَكِية ويوحي إليه، فيسمعه ولا يراه، وفي هذه المرتبة يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس، وكان ذلك أشدَّ الوحي عليه صلى الله عليه وسلم.

المرتبة الخامسة: أن يأتيه الملك جبريل ويراه النبي ﷺ في صورته الملكية العظيمة التي خُلِقَ عليها ويسمعه، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه. وهذا وقع له صلى الله عليه وسلم مرتين[2]: إحداهما في الأرض عند وحي آيات المدثر، والثانية: في السماء ليلة المعراج عند سِدْرَةِ المنتهى، كما في سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [١٣ ـ ١٨].

وهذه المراتب الأربعة التي بعد الأولى كلها صور لمرتبة واحدة لا تخرج عنها، ذكرها القرآن في قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾.

المرتبة السادسة: كلام الله تعالى للنبي من وراء حجاب، كما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج بعد ان استقرت فريضة الصلوات على الخمس فنودي: ﴿أَحْكَمْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ على عِبادي﴾، وكما وقع لموسى عليه السلام: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾.

المرتبة السابعة: كلامُ الله تعالى للنبي وحياً بلا واسطة مَلَكٍ ولا حِجاب: كما أوحاه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج وهو فوق السموات من فرض الصلوات ومضاعفة الحسنات الحسنة بعشر أمثالها، وغير ذلك، وهي مرتبة داخلة في قوله: ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ أي إعلاماً خفياً.

لكن بعضهم استشكل ما وردت به الأحاديث في هذه المرتبة وقال به أكثر

---

(١) عن أبي هريرة. وأخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب: البخاري (سؤال جبريل . . .) ح١/ ١٥، ومسلم أول الإيمان.

(٢) كما في مسلم في كتاب الإيمان ج ١ ص ١٠٩.

العلماء أنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه عزّ وجلّ ليلة المعراج كيف يتفق مع قوله : ﴿**وما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللّهُ إلا وَحْياً أو مِنْ وَرَاءِ حِجاب**﴾ وليس ههنا حجاب ؟

إلا أن هذا الإشكال في الحقيقة غير وارد هنا إذا ما علمنا أن الوحي الإلهي في هذه المرتبة لا يشبه خطاب الخلق ، بل هو داخل في قوله إلا وحياً ، لأن الوحي إعلام في خفاء ، وقد أبان الإمام المفسر البيضاوي عن ذلك في تفسيره لهذه الآية وهو يفسر ﴿**إلا وحياً**﴾ : «كلاماً خفياً يُدرك بسرعة ، لأنه تمثيل ، ليس في ذاته مركباً من حروف مقطعة يتوقف على تموجات متعاقبة» ، فأزاح بذلك شبهة خروج هذه المرتبة عن حد الآية الكريمة .

مظاهر الوحي :

والوحي في أي مرتبة من مراتبه أمر عظيم يقتضي من الإنسان أن يتجاوز حدود المادة وعالم الشهادة ليتصل بالملائكة وعالم الغيب ، وذلك يقتضي من صاحبه استعداداً يهيئه الله تعالى في أولئك الأخيار الذين اصطفاهم من خلقه لهذه المنزلة ، وكثيراً ما كان يَحْدُثُ للنبي صلى الله عليه وسلم مشقة شديدة في التلقي من الملك . قالت عائشة رضي الله عنها : إن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشدّه عليَّ ، فيفصمُ عني وقد وعيتُ عنه ما قال ، وأحياناً يَتَمَثَّلُ ليَ المَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُني فأعي ما يقولَ**» . قالت عائشة رضي الله عنها : «ولقد رأيتُه ينزلُ عليه الوَحْيُ في اليومِ الشديد البرد فَيَفْصِمُ عنه وإنَّ جبينَه لَيَتَفَصَّد عَرَقاً»[1] .

ومن آثار الوحي ومظاهره على النبي صلى الله عليه وسلّم ما وردت به هذه الأحاديث :

١ ـ ما ذكر في حديث السيدة عائشة الذي رويناه سابقاً .

---

(١) متفق عليه : البخاري في مطلع صحيحه ص ٢ ـ ٣ ومسلم في الفضائل (باب عرق النبي صلى الله عليه وسلم . . .) ج ٧ ص ٨٢ .

وأخرج البخاري أول صحيحه ومسلم[1] عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة وكان مِمّا يحرك شفتيه، فقال ابن عباس فأنا أحركهما لك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركهما، وقال سعيد أنا أحركهما كما رأيت ابن عباس يحركهما، فحرك شفتيه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، قال جَمَعَه لك صدرك وتَقرأَه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، قال فاستمعْ له وأنصت ثم إن علينا بيانه، ثم إن علينا أن تقرأَه. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما كان قرأ».

٢ ـ أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الوحي سُمِعَ عند وجهه دويٌّ كدويِّ النحل: عن عبد الرحمٰن بن عَبْدٍ القارِّيِّ قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي يُسْمَعُ عند وجهه دوي كدوي النحل، فمكثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه فقال: «اللهم زدنا ولا تَنْقُصْنا، وأكرمنا ولا تُهِنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارضَ عنا وأرضنا، ثم قال: لقد أُنْزِلَتْ عليّ عشرُ آيات مَن أقامهن دخل الجنة»، ثم قرأ علينا: «قد أفلح المؤمنون. . . . حتى ختم العشر»[2]، أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

٣ ـ أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل عليه الوحي ثَقُلَ جسمه حتى يكاد يرضُّ فَخِذُه فَخِذَ الجالسِ إلى جنبه.

---

(١) البخاري ج ١ ص ٤ ومسلم أول الصلاة ج ٢ ص ٣٥.

(٢) وهي: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. وانظر الحديث في المسند رقم ٢٢٣ والترمذي ج ٢ ص ٣١٦ ـ ٣١٧ والمستدرك ج ١ ص ٥٣٥.